من أخلاق الحجّ

السيد عادل العلوي

● **أهمية الإخلاص:**

قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١].

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وتمدّح بخلقه في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢] وركّبه من سرّ وعلن وروح وبدن. بدنه من تراب وروحه من أمر ربّه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٣] فأودعه أسرار خلقه، جرمه صغير ولكن انطوى فيه العالم الأكبر، فدنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، فعلّمه الأسماء الحُسنى وفهّمه البيان الأتمّ، وأناله بخضوعه وعبوديته له سبحانه المقام الشامخ، فإنّ العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة، وأنطقه بأقواله سبحانه، ومن أصدق من الله قيلاً، وأصبغه بصبغته، ومن أحسن من الله صبغة، وهداه النجدين: نجد الخير ونجد الشر، وجعله مختاراً في سلوك الطريقين، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً.

---

(١) البيّنة: ٥.

(٢) المؤمنون: ١٤.

(٣) الحجر: ٢٩.

وخـــلق لروحـــه وبـدنه مـنافيات ومـلائمات وآلاماً ولذّات ومـنجيات ومهلكات، فمنافيات البدن الأمـراض والأسـقام الجـسمانية، ومـلائماته الصـحّة واللذات الجسمانية، والمتكفّل ببيان تفاصيل هذه الأمراض وكيفية علاجها هو علم الطب، ومنافيات الروح والآمه هي رذائل الأخلاق وذمائمها التي تهلكه وتشقيه، وتودي به إلى أسفل السافلين ترديه وتهويه، فيكون كالأنعام بل أضـلّ سـبيلاً، وقلبه كالحجارة بل أشدّ قسوةً، وصـحّة الروح رجـوعها إلى فـضائل الأخـلاق ومحامدها، التي تنجيه وتسعده في الدارين، وتأخذ بيديه إلى مجاورة أهـل الحـق عند مليك مقتدر في مـقعد صـدق،... هـذا وأنّ المُـتكفّل لبـيان هـذه الصـفات الأخلاقية ومعالجة رذائلها هو (علم الأخلاق).

وإنّما بعث الله رسوله خاتم النبيين محـمّداًﷺ ليتمّم مكـارم الأخـلاق، وقـد مدحه ربّه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُـلُقٍ عَـظِيمٍ﴾[1] وقـد أقـسم في سـورة الشمس بأحد عشر قسماً أنّه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ حتى قيل أوجب الواجبات الأخلاق الحسنة والمحمودة.

ثمّ البدن ماديّ فانٍ، وكل من على الأرض فـانٍ، والروح مجـرد بـاق، وإذا اتّصفت النفس بشرائف الأخلاق كانت منعّمة في السعادة الأبدية، وإن اتّـصفت برذائها كانت في الشقوة والعذاب مخلّدةً.

فعلى المرء الواعي أن يهذّب نفسه ويزكّي أخلاقه ويعالج أمراضه قبل فوات الأوان، كما أنّ المريض ينبغي له أن يُعالج بدنه وصحته، وكل شيء إنّما يعالج بضدّه، فإنّ علاج اليابس بالرطب والرطب باليابس والحـار بـالبارد والبـارد بـالحار، وهكذا أمراض الأخلاق، فإنّه يعالج مرض الجـهل بـالعلم، والبـخل بـالسخاء، والكبر بـالتواضـع، ومـرض الشرّه بـالكفّ عـن الشهـــوات، ومـرض الريـاء

(١) القلم: ٤.

بالإخلاص. وإن كان يستلزم ذلك التكلّف والمرارة، فإنّه من أراد أن يُعالج مرض بدنه عليه أن يتحمّل مرارة الدواء وأن يصبر عن المُشتهيات، وكذلك الروح فلابدّ من احتمال مرارة المجاهدة وشدّة الصبر، فإنّه سيّد الأخلاق، فيصبر على فعل الطاعات والعبادات وترك المعاصي والآثام، ليداوي بالصبر أمراض القلوب، وإنَّ علاجها أولى من علاج الأبدان، فإنَّ مرض البدن يخلص الإنسان منه بالموت، ولكن مرض الروح ـ والعياذ بالله ـ يدوم بعد الموت أبداً، فالحريّ بمن يخاف على نفسه وقلبه وروحه أن يباشر المعالجة قبل الموت، فإنّه سيندم يوم لا ينفعه الندم.

ثمّ أصل تهذيب النفس وتزكيتها أن يقف الإنسان على حقيقة نفسه ويرى عيوبها ومهلكاتها، فمن كملت بصيرته وتمّت حذاقته، لم تخف عليه عيوبه. ومن عرف الأمراض والعيوب يسهل عليه التداوي والتخلّص منها. وأكثر الناس جهلوا عيوب أنفسهم، ويرون القذى في أعين الآخرين، ولا يرون الجزع في عيونهم.

فلابدّ من الاعتدال والحكمة بلا افراط ولا تفريط، بل خير الأُمور أوسطها، فإنّ الاعتدال في الأخلاق هو صحّة القلب والنفس والروح، والميل والانحراف عن حدّ الاعتدال فهو المرض والسقم الذي يخاف منه، فعلاج النفس بمحو الرذائل والأخلاق الذميمة عن النفس، وكسبها الفضائل والأخلاق الحميدة، ثمّ بعد تخلية القلب من الأهواء والأمراض النفسيّة وتحليته بالأخلاق الفاضلة، ثمّ يسعى من أجل تجليتها وصيقلتها حتى تكون كالمرآة تنطبع فيها أسرار الله وكونه، وإنّ أُمور الناس ترجع إلى ربهم كما رجوع الإنسان إليه، فهو الكمال المطلق ومطلق الكمال المستجمع لجميع الصفات الكمالية والجمالية والجلالية بلا نهاية ولا بداية، فهو الأوّل وهو الآخر.

ثمّ الغالب على أصل المزاج البدني هو الاعتدال، وإنّما تعتريه العلل المغيرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، وكذلك الروح فكلّ مولود يولد على الفطرة المعتدلة الصحيحة، وإنّما أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه، وإنّما المحيط

والتربية والتعلّم والتعوّد لها الأثر البالغ في اكتساب الإنسان الرذائل والآثام.

ولمّا كان البدن في ابتداء خلقه لم يخلق كاملاً، وإنّما ينمو ويكمل وتقوى القوى بالنشوء والتربية بالغذاء والماء، فكذلك النفس تخلق ناقصة، إلّا أنّها قابلة للتكامل المنشود في جبلته، والذي خُلق من أجله، ليصل بجهده وجهاده إلى كماله وأن يكون مظهراً لأسماء الله وصفاته.

وإنّما تكتمل النفس بالتزكية وتهذيب الأخلاق وتغذيتها بالعلم النافع والعمل الصالح والإيمان الراسخ. وإذا كان البدن صحيحاً، فشأن الطبيب حينئذٍ تمهيد القانون وبيانه الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحّة إليه، فكذلك النفس، فإن كانت سليمة وزكيّة ومهذّبة الأخلاق، فينبغي السعي من أجل حفظها وسلامة صحّتها وبقائها واكتساب زيادة صفائها وجلائها، وإن كانت عديمة الكمال فاقدة للصفاء الروحي، فينبغي الجهد المتواصل لجلب الصحّة النفسيّة إليها.

هذا ومن أمراض القلب الخطرة جداً هو الرياء في النوايا والعمل، فإنّه كدبيب نملة سوداء في ليلة ظلماء على صخرة صلداء فمن يحسّ بدبيبها؟

ويُقابل الرياء الإخلاص، والأعمال بالنيّات ـ كما ورد في الخبر ـ ولكل امرئ ما نوى، والنيّة من عمل الجوانح وهو القصد القلبي نحو العمل المقصود إتيانه والمنشود فعله. ولو كانت النيّة خالصة لله سبحانه فإنّها توجب قبول الأعمال، فإنّ الكلم الطيّب ـ وهو الذي فيه الإخلاص كما ورد في الأثر ـ يصعد إلى الله سبحانه، وإنّما يتقبّل الله من المُتّقين، والإخلاص أساس التّقوىٰ.

وإنّ الشيطان الرّجيم عدوّ الإنسان قد قعد له هو وأعوانه وحزبه بالمرصاد، ليضلّ الناس ويغويهم ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1].

(١) سورة ص: ٨٢ ـ ٨٣.

وقال رسول الله ﷺ: « طوبى للمُخلصين أولئك مصابيح الهُدى وتنجلي عنهم كلّ فتنة ظلماء !»[١].

وقال ﷺ: « العُلماء كلّهم هلكى إلّا العاملون، والعاملون كلّهم هلكى، إلّا المخلصون والمخلصون على خطر ».

وقال ﷺ: « إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً لأنّه لا يقبل من عباده الأعمال إلّا ما كان خالصاً ».

وقال ﷺ: « ليست الصلاة قيامك وقعودك، إنّما الصلاة إخلاصك، وإن تُريد بها وجه الله ».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: « العمل كلّه هباء إلّا ما أُخلص فيه ».

وقال عليه السلام: « ضاع من كان له مقصد غير الله ».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « ولابدّ للعبد من خالص النيّة».

وقال الله تعالى عن لسان نبيّه: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: « إنّ لكلّ حقّ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحبّ أن يحمد على شي ء من عمل لله ».

وقال ﷺ في حديث: « أمّا علامة الُمخلص، فأربعة: يسلم قلبه وتسلم جوارحه وبذل خيره وكفّ شرّه ».

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «مَن لم يختلف سرّه وعلانيته وفعله ومقالته، فقد أدّى الأمانة وأخلص العبادة».

قال أبو حامد الغزالي في إحياء العلوم في بيان حقيقة الإخلاص ـ بعد أن ذكر

---

(١) كنز العمّال خ ٥٢٦٨ ـ الدر المنثور ٢: ٢٣٧.

(٢) الزمر: ١١ ـ ١٢.

أقوال المشايخ فيها ـ: الأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنّما البيان الشافي بيان سيّد الأوّلين والآخرين، إذا سُئل عن الإخلاص فقال: (هو أن يقول ربّي الله ثم يستقيم كما امرت) أي لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلاّ ربّك وتستقيم في عبادته كما أمرك ـ إياك نعبد وإيّاك نستعين ـ وهذه إشارة إلى قطع كلّ ما سوى الله عزّوجل من مجرى النظر وهو الإخلاص حقّاً.

ثمّ من آثار الإخلاص في حياتنا الفرديّة والاجتماعيّة، وفي العلميّة والعمليّة، هو تفجّر ينابيع الحكمة وجريانها من قلب المُخلص على لسانه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « **قال الله عزّوجل: لا أطلّع على قلب عبد فأعلم منه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلاّ توليت تقويمه وسياسته** ».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: « **غاية الإخلاص الخلاص. والمُخلص حريّ بالإجابة، وعند تحقّق الإخلاص تستنير البصائر، وبالإخلاص تُرفع الأعمال، وفي إخلاص النيّات نجاح الأُمور، ومن أخلص بلغ الآمال، أخلص تنل**».

حريّ أن نكتب هذه الكلمات بأقلام من نور على وجنات الحور، فما أروع قوله عليه السلام: **أخلص تنل**. كلمتان فقط، ولكن فيها ما فيها من الأسرار والحِكَم والحقائق، فإنّ الإنسان إنّما ينال ما ينال بالإخلاص.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « **إنّ المؤمن ليخشع له كلّ شيء، ويهابه كلّ شيء، ثمّ قال: إذا كان مخلصاً لله أخاف الله منه كلّ شيء حتى هوام الأرض وسباعها وطير السماء** ».

ثمّ يا هذا هل بعد الإخلاص من مقصود ومنشود؟

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام: « **ما بين الحقّ والباطل إلاّ قلّة العقل ـ أي من يختار الباطل فهذا من قلّة عقله ـ** قيل وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: **إنّ العبد يعمل الذي هو لله رضىً فيريد به غير الله، فلو أنّه أخلص لله، لجاءَه الذي يريد**

في أسرع من ذلك»[١].

هذا في الإخلاص الذي هو من جنود العقل، ويقابله الرياء، الذي هو من جنود الجهل، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه ومبرم خطابه: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[٢].

قال رسول الله ﷺ: « **لابن مسعود: يابن مسعود إيّاك وأن تظهر من نفسك الخشوع والتواضع للآدميين. وأنت فيما بينك وبين ربّك مصرّ على المعاصي والذنوب، يقول الله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾**».

وقال: « **أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أنّ فيه خيراً ولا خير فيه**»[٣].

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: « **المرآئي ظاهره جميل وباطنه عليل** ».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « **إيّاك والرياء فإنّه من عمل لغير الله وكّله الله إلى من عمل له** ».

وعن رسول الله ﷺ: إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّوجل: اجعلوها في سجّين إنّه ليس إياي أراد به.

وفي حديث آخر: تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به، فيطأُون الحجب كلّها حتى يقوموا بين يدي الله فيشهدوا له بعمل صالح ودعاء فيقول الله تعالى: أنتم حفظة عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إنّه لم يردني بهذا العمل عليه لعنتي.

وقال ﷺ: « **إنّ المرائي يُنادىٰ يوم القيامة: يا فاجر يا غادر يا مرائي، ضلّ عملك وبطل أجرك، اذهب فخذ أجرك ممّن كنت تعمل له** ».

---

(١) الروايات التي ذكرتها إنّما نقلتها من كتاب ميزان الحكمة المجلد الثالث، فراجع.

(٢) الأنفال: ٤٧.

(٣) كنز العمال: ح ٧٤٨٥.

وقال الصادق عليه السلام: « **ما على العبد إذا عرفه الله ألّا يعرفه الناس؟ إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله وإن كلّ رياء شرك**».

قال الله عزّوجل كما في حديث قدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء فهو للذي أشرك».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله تعالى لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرّة من رئاء**».

وقال: يابن مسعود: إذا عملت عملاً من البرّ وأنت تريد بذلك غير الله، فلا ترج بذلك منه ثواباً، فإنّه يقول: ﴿**فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً**﴾.

وعن شداد بن أوس قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله يبكي، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: «إني تخوّفت على أُمّتي الشرك أما إنّهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولكنهم يراءون بأعمالهم».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: « **يُجاء بعبد يوم القيامة قد صلّى فيقول: يا ربّ صلّيت ابتغاء وجهك، فيقال له: بل صلّيت ليُقال ما أحسن صلاة فلان اذهبوا به إلى النار**».

ولكلّ شيء علامة، وقد جاء في علامة المرائي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمّا علامة المرائي فأربعة: يحرص في العمل لله إذا كان عنده أحد، ويكسل إذا كان وحده، ويحرص في كلّ أمره على المحمدة، ويحسن سمته بجهده».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: « **الإبقاء على العمل أشدّ من العمل**». قال الراوي وما الإبقاء على العمل؟ قال: يَصلَ الرجل بصلة، وينفق نفقة لله وحده لا شريك له، فتكتب له سرّاً، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثمّ يذكرها فتمحى وتكتب له رياء».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في وصف المؤمن: «لا يعمل شيئاً من الخير رياءً ولا يتركه حياءً».

وفي غرر الحكم عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**كلّ حسنة لا يُراد بها وجه الله تعالى، فعليها قبح الرياء وثمرها قبح الجزاء**».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ما كان من الصدقة والصلاة والصوم وأعمال البرّ كلّها تطوّعاً فأفضلها ما كان سرّاً، وما كان من ذلك واجباً مفروضاً فأفضله أن يعلن به»[1].

فالرياء حرام والمرائي عند الله سبحانه ممقوت ومغضوب عليه وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار كما ذكرنا.

هذا غيض من فيض في أخبار الإخلاص والرياء وبيان حدودهما، وما يترتب عليهما من الآثار في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه الوقفة العاجلة في رحاب عظمة الأخلاق الإسلامية ودورها البالغ في حياة المسلم الرسالي، وبعد عرض موجز عن الإخلاص والرياء، وإنّما منشؤهما ومحطّهما هو القلب، فإنّه العالم بالله وهو العامل لله، والساعي والمخلص والمتقرب إليه، وهو الكاشف بما عند الله ولديه، وإنّما الجوارح أتباع له وخَدَم والآت يستخدمها القلب كاستخدام الراعي للرعيّة، فهو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عنه إذا صار مستغرقاً بغير الله، فهو المُخاطب وهو المُطالب وهو المُثاب والمُعاقب، فيفلح الإنسان إذا زكّاه ويشقى ويخيب إذا دَنّسهُ ودسّاه، وهو المطيع لله بالحقيقة، وإنّما الذي يظهر على الجوارح الظاهرية من العبادات أنواره، فهو سلطان البدن، وهو العاصي المتمرّد على الله، وإنّما الساري على الأعضاء من الفواحش آثاره وبظلمانيته ونورانيته تتجلّى المحاسن الظاهرية ومساويها، فإنّ كل إناء بما فيه ينضح، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه عرف ربّه، فتارةً يهوى إلى أسفل السافلين ويكون كالأنعام بل

(١) نقلنا الروايات من ميزان الحكمة ٤: ٢٢ فراجع.

أضلّ سبيلاً، وأُخرى يصعد إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقرّبين، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه، ويترصّد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ومنه، فهو ممّن قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]. فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس السالكين، فلا تغفل

فلابدّ للمؤمن أن يخلص في نواياه وأعماله وحركاته وسكناته، حتى يلقى الله وليس في قلبه سواه وذلك هو القلب السليم، الذي ينفع في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

● **الإخلاص في الحجّ:**

بعد هذه الكلمة الموجزة لأهمية الإخلاص في أعمالنا وعباداتنا، نأتي لنبيّن أهمية الإخلاص في فريضة الحج بشكل موجز، فالحاج سواء أكان مؤمناً أم مؤمنةً لابدّ له من الإخلاص في مناسكه وحجه وعمرته... فإن الحجّ من فروع الدين ومن العبادات وشرطها الأوّل النيّة الخالصة متقرّباً إلى الله سبحانه وتعالى.

الحجّ من العبادات الدينية والسياسيّة والاجتماعية ذات المفاهيم القيّمة، روحياً وبدنيّاً، فرديّاً واجتماعياً، في جميع جوانب الحياة مع العبادة والاقتصاد والسياسة والثقافة والحضارة والأُخوّة الإسلامية وغير ذلك.

ويكفي في شرافة الحجّ ومقامه الشامخ في الدين الإسلامي الحنيف، أنّه أحد الأركان التي بُني عليها الإسلام، فهو من الأُسس الأوّلية التي يعلو عليها الإسلام العظيم، وتتجلّى فيه روح المحبّة والأُخوّة والصفاء وحكومة الروحانيات على الماديّات، وكل مسلم متحمّس لدينه يرى في حجّه وعمرته، أنّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وأنّ هذا الدين القيّم لو تمسك به أهله حقّ التمسّك وطبّقوه في كل زوايا

(١) الحشر: ١٩.

حياتهم لحكم العالم ولرفرفت راياته على ربوع الأرض ولو كره المشركون.

فإنّ الإنسان الضائع والبشرية التائهة، تجد انشودتها وسعادتها في هذا الدين، فهو يتكفّل سعادة الإنسان في داري الدنيا والآخرة.

فالحجّ يمثّل بوضوح عزّ الإسلام وبقاءه وسلطانه وكرامة المسلمين وشرفهم، فليس لأُمّة وملّة من الأُمم والملل مثل هذا المؤتمر العالمي العظيم والمشهد السنوي الكبير الحافل بالخيرات والبركات؛ ليشهدوا منافع لهم، ليجتمع فيه المسلمون من شرق الأرض وغربها على اختلاف جنسيّاتهم وطوائفهم وأشكالهم وألوانهم ولغاتهم، ولا يتميز غنيّهم عن فقيرهم ورئيسهم عن مرؤوسهم، كل واحد منهم اتزر برداء وارتدى بآخر؛ ليلبّي دعوة الله التي يدوي صداها عبر الأحقاب والأجيال من شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[1].

فالحج فلاح وصلاح، وقد أفلح من أقامه ورفع بنيانه كما أمر الشارع به، وإنّما ركّز القرآن الكريم ورسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام على الحجّ؛ لما فيه من المغزى والمعنى الملكوتي، وأنّه يحتوي على كثير من العبادات والفضائل الأخلاقيّة والخير والإحسان الاجتماعي والثواب الأخروي، فإنّه من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين فيه.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**من مات ولم يحجّ، فليمت إن شاء يهوديّاً، وإن شاء نصرانيّاً**»[2].

فالحجّ نقلة اجتماعية ورحلة جماهيريّة يتّجه فيها الناس من كل صوب ومكان لأداء فريضة إلهيّة واجبة، في مكان مقدّس واحد هو أشرف بقاع الأرض مكّة المكرّمة، وفي زمان واحد من الأشهر الحرم وهو ذو الحجّة المبارك، ليمارسوا

(١) الحج: ٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١: ٣٨٦.

شعائر موحّدة ومناسك دينيّة وطقوساً خاصّة، تجرّد الإنسان عن عالم الماديّات، وتحلّق بروحه إلى عالم ملكوتي وروحاني، بلا نهاية إلى الرفيق الأعلى قاب قوسين أو أدنى.

ولكن نوايا الناس مختلفة، والإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره وأستاره، فقد روي في خبر من طريق أهل البيت عليهم السلام «**إذا كان آخر الزمان، خرج الناس للحجّ أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقرّاؤهم للسمّعة**»(١).

فليس كلّ من حجّ بيت الله الحرام نال الكمال وبلغ العُلى، بل بشرطها وشروطها والإخلاص أوّل شروطها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**الحجّ حجّان: حجّ لله وحجّ للناس، فمن حجّ لله كان ثوابه على الله الجنّة، ومن حجّ للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة**»(٢).

ولا يخفى من يدخل الجنّة فهو من السعداء لقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾(٣).

فمن كان سعيداً في حجّه، إنّما يخلص لله في مناسكه ويبتغي وجه الله في أعماله، ومن عمل للناس فقد خسر الدنيا والآخرة، فإنّ الدنيا الدنيّة دار ممر، وأهل الدنيا لا وفاء لهم، وفي الآخرة كلّ ينادي وانفساه، وكل يفرّ من أخيه وصاحبته وبنيه وعشيرته التي كانت في الدنيا تؤيه. فمن الحماقة وقلّة العقل أن يعمل الإنسان لغير الله سبحانه، كما ورد في الخبر الذي مرّ.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**من حجّ يريد به الله ولا يريد به رياءً وسمعةً،**

(١) المحجة البيضاء ٢: ١٨٩ أخرجه الخطيب البغدادي في تأريخه، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين بلفظ آخر كما في المغني.
(٢) من كتاب ميزان الحكمة ٢: ٢٧٦.
(٣) هود: ١٠٨.

غفر الله له البتّة[١] ـ أي قطعاً ـ».

فمن حجّ ليُنادىٰ في المجتمعات والنوادي: يا حاج فلان ويا حاجّة فلانة، وليفخر على الآخرين ويتطاول عليهم، لم يصبه من حجّه إلّا التعب والنّصب، والأعمال العباديّة تبطل بالرياء، فيجب إعادتها وقضاؤها حينئذٍ. فهل بعد هذا إلّا الإخلاص في النوايا والعمل؟!

● **ختامه مسك:**

ولنختم الموضوع بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في أسرار الحجّ ودقائقه وعلّو معانيه وسموّ مفاهيمه.

روي في مصباح الشريعة عنه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه وأولاده الطاهرين أنّه قال: «إذا أردت الحجّ، فجرّد قلبك لله تعالى من كلّ شاغل وحجاب كلّ حاجب، وفوّض أُمورك كلّها إلى خالقك، وتوكّل عليه في جميع ما تظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوّتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدوّاً ووبالاً، فإنّ من ادّعى رضا الله واعتمد على ما سواه، صيّره عليه وبالاً وعدوّاً؛ ليعلم أنّه ليس له قوّة وحيلة، ولا لأحد إلّا بعصمة الله وتوفيقه.

فاستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيّه صلى الله عليه وآله، وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة، وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثمّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفا والخضوع والخشوع، وأحرم من كلّ شيء يمنعك عن ذكر الله ويحجبك عن طاعته، ولبِّ بمعنى إجابة صادقة صافية خالصة

(١) من كتاب ميزان الحكمة ٢: ٢٧٦.

زاكية لله تعالى في دعوتك، متمسكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت، وهرول هرولة من هواك، وتبرّأ من حولك وقوّتك، واخرج من غفلتك وزلّاتك بخروجك إلى منى، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه، واعترف بالخطايا بعرفات، وجدّد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرّب إليه، واتّقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملإ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارمِ الشهوات والخساسة والدناءة والذميمة عند رمي الجمرات، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم، ودُر حول البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه، واستلم الحجر رضا بقسمته وخضوعاً لعزّته، وودّع ما سواه بطواف الوداع، واصف روحك وسرّك للقائه يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن بمرأىً من الله نقيّاً أوصافك عند المَروة، واستقم على شرط حجّتك هذه، ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربّك، وأوجبته له إلى يوم القيامة، واعلم بأنّ الله تعالى لم يفرض الحجّ، ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾[1]. ولا شرع نبيّه سُنّةً من خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلّا للاستعانة والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من الدخول في الجنّة أهلها، ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحجّ من أولها إلى آخرها لأولي الألباب وأولي النهى[2].

انتهىٰ كلامه صلوات الله عليه وسلامه، واغتنموا الفرص يا ضيوف الرّحمٰن ويا حجّاج بيت الله الحرام، وإنّما يتقبّل الله من المُتّقين المُخلصين.

---

(١) آل عمران: ٩٧.

(٢) المحجّة البيضاء ٢: ٢٠٧.